

المبادئ الأخلاقية عند كونفوشيوس

Moral principles of Confucius

إعداد الباحثة/ رانيا حسن الصيرفي

ملخص البحث

أنشأ كونفوشيوس نظاماً أخلاقياً، معتمداً في ذلك على الكتب الصينية القديمة، خاصة كتاب " الطقوس " وكتاب "الأغاني" وكتاب "التاريخ"، مع تأويل لغتها العتيقة تأويلاً معاصراً. وقد ظل هذا النظام موضع احترام الصينيين وإجلالهم في جميع أرجاء البلاد، وذات أثر قوي وملاحظ حتى وقتنا المعاصر. ولقد كانت الأخلاق همّة الأول، وكان يرى أن المصائب والشُرور التي تسود عصره مصائب وشُرور أخلاقية نشأت من ضعف الوازع الأخلاقي، وعلاجها هو العودة إلى الفضيلة، وتجديد الأخلاق تجديداً يقوم على تنظيم حياة الأسرة، وسلوك الأفراد بعضهم بإزاء بعض على أساس صالح قويم.

الكلمات المفتاحية: الصين - كونفوشيوس - الأخلاق.

Abstract

Confucius established a moral system based on ancient Chinese books, especially the Book of Rites, the Book of Songs and the Book of History, with a contemporary interpretation of its ancient language. This system has been respected and revered by the Chinese throughout the country, and has had a strong and noticeable effect up to the present time. Ethics was his first concern, and he believed that the calamities and evils that prevailed in his time were moral calamities and evils that arose from the weakness of moral scruples, and their treatment was a return to virtue, and the renewal of morals based on the organization of family life, and the behavior of individuals towards each other on the basis of a righteous good.

Key words: China - Confucius - Ethics.

المقدمة

لقد وضع كونفوشيوس أخلاقياته على أساس طبيعة الإنسان والمجتمع، واعتبرهما مصدر المثل العليا والمعايير الأخلاقية. كما يرى أن السبيل الوحيد لاتقاء الشر والظلم والكراهية والعنف والقسوة إنما يكون بالعودة إلى الفضيلة الكاملة، والإيمان إيماناً تاماً، وبتعبير أكثر إيجازاً يجب أن تكون الأخلاق هي الجوهر الأساسي العملي للشعب، وأن سياسة الدولة لا تنجح نجاحاً حقيقياً إلا إذا أسست على الأخلاق.

الأخلاق هي محور وأساس فلسفة كونفوشيوس، وهي الأمر الأساسي الذي تدعو إليه، وتسعى إليه بتربية الموازع الداخلي لدى الفرد ليشعر بالانسجام الذي يسيطر على حياته النفسية مما يخضعها للقوانين الاجتماعية والقانونية بشكل تلقائي. ومن هنا تأتي أهمية البحث في عرض المبادئ الأخلاقية عند كونفوشيوس، حيث تعتبر الكونفوشيوسية مذهبا إصلاحيا للأخلاق والمجتمع والسياسة، وقد أثر في كونفوشيوس ما رأى من قومه من تدني في الأخلاق، وفساد في السياسة وتفكك في المجتمع. فأراد أن يعود بقومه إلى الأخلاق الفاضلة والمعاملات الحسنة والسياسة الصالحة، فكان له وللكونفوشيوسيين من بعده، مبادئ وأصول إصلاحية في الأخلاق والمجتمع والسياسة، شكلت المنهج الذي سارت عليه الكونفوشيوسية بعد ذلك. وتعتمد الباحثة في عرضها للمبادئ الأخلاقية عند كونفوشيوس على المنهج التحليلي، وتحاول كذلك ذكر أهم هذه المبادئ والأصول الأخلاقية من خلال هذا البحث في نقاط على النحو التالي:-

أولاً: خيرة الفطرة الإنسانية.

ثانياً: الوسط والانسجام (الوسط الذهبي).

ثالثاً: الفضائل الأخلاقية.

أولاً: خيرة الفطرة الإنسانية:

أقر كونفوشيوس^(١) القول بخيرية الطبيعة الإنسانية، وأن الإنسان خير بطبعه،

يبحث دائما عن الخير ومعاييره. ومما قاله في هذا المعنى:

"إن الناس يولدون خيرين سواسية بطبيعتهم، ولكنهم كلما شبوا اختلف الواحد منهم عن الآخر تدريجياً وفق ما يكتسب من عادات"^(٢). ويقول أيضاً: "إن الطبيعة الإنسانية مستقيمة منذ الولادة يولد الإنسان مستقيماً فمن فقد الاستقامة، وما زال في الحياة فجاوزه من الموت إنما هو من حسن الطالع"^(٣). فإذا افتقد الإنسان هذه الاستقامة أثناء حياته افتقد معها السعادة". ويرى أن السبيل إلى الأفعال الخيرة هو التمسك بالقانون الأخلاقي الإلهي الذي يحقق صلاح الفرد والمجتمع. وإذا كان الناس، بطبيعتهم، خيرين صالحين مستقيمين، فإن الحيوانات، في مقابل ذلك، ذات طبائع شريرة، ولذلك اعتقد الكونفوشيوس أن الأشرار من طبيعة حيوانية غير مستقيمة.

جدير بالذكر أن منهج كونفوشيوس الأخلاقي يقوم على الفهم الكامل للطبيعة الإنسانية، من حيث كونها طبيعة عاقلة واجتماعية، مع ملاحظة أنه:-

أولاً: لا يعتبر الفرد كائناً مستقلاً عن المجتمع، أو يعيش بمعزل عنه.

ثانياً: لا يُنظر إلى المجتمع كنوع من الكيان الميتافيزيقي الذي يلغي وجوده وجود الفرد، بحيث لا يصبح للفرد وجود ما لم يكن مندمجاً فيه تمام الاندماج.

وقد نشأت رؤية كونفوشيوس هذه من إيمانه بمبدأين هامين:-

الأول: أن الأفراد مخلوقات اجتماعية، يلعب المجتمع دوراً كبيراً في تشكيلهم إلى ما هم عليه. ولما كان المجتمع من ناحية أخرى، يخضع لتأثير أفعال أفراد، كل وفقاً لاستعداد، فإن المجتمع يشكله الأفراد الذين يكونونه بالصورة التي هو عليها، فالتأثير والتأثر متبادلان بين الفرد والمجتمع.

الثاني: استحالة انسحاب الفرد من المجتمع، نظراً لما يتمتع به من يقظة ضمير تصده عن إتيان هذا الفعل الغريب عن طبيعته.

ويستنتج كونفوشيوس من هذين المبدأين، نتيجة هامة مفادها أنه من أكبر الأخطاء أن ينسحب الفرد من المجتمع، ويتحول إلى شخص انعزالي زاهد في الحياة، بل على كل فرد أن يحرص على أن يكون عضواً مهماً عاملاً في المجتمع، ونافعاً في نطاقه. يضاف إلى ما سبق أن على الفرد أن يحذر من أن يتحول إلى أسير للمجتمع يتبع أوضاعه

وأعرافه المجافية لمنحاه الخلقي دون تفكير أو روية، بل الواجب عليه إذا ما بدا له أن ممارسة هذه الأعراف والتقاليد فيها فساد أو ضرر، أن يعمل على هداية المجتمع إلى الصواب وأن يدفع به إلى السير في الاتجاه السليم. أما إذا كانت هذه الأعراف والتقاليد معقولة أو لا ضرر منها فعليه مجاراتها والعمل بها^(٤).

ثانياً: الوسط والانسجام (الوسط الذهبي):

الوسط الذهبي أو ما يطلق عليه الوسط والانسجام عند كونفوشيوس، هما نقطة الدرورة في الطبيعة الإنسانية، إذ أن هذه الطبيعة تتألف من قسمين: النفس أو الذات أو المركز والأحاسيس أو المشاعر والانفعالات، فعندما لا تنتبه الأحاسيس أو الانفعالات (مثل الغضب أو الحزن أو الفرح). تدعى الوسط أو الاعتدال. وعندما تنتبه هذه الأحاسيس أو الانفعالات دون أن تتجاوز الحد المعتدل يقال عن النفس أو الذات إنها في حالة الانسجام. إذن الوسط أو الاعتدال هو الأصل، والانسجام هو القانون العام.

لقد وقف كونفوشيوس موقفاً وسطاً بين الإفراط والتفريط، ولجأ إلى الحد الأوسط لتحديد الفضائل الخلقية. وبعبارة أخرى فإن الفضيلة عنده هي اختيار الوسط بين متضادتين، فالشجاعة وسط بين التهور والجبن، والكرم وسط بين التبذير والبخل، والصداقة وسط بين التملق والشراسة، والتواضع وسط بين الخجل وانعدام الحياء.

ومما قاله كونفوشيوس في هذا المعنى: "إنني أعرف الآن لماذا لا يفهم كثير من الناس القانون الأخلاقي. فالأفراد ذوو الطباع السامية يعيشون في مستوى أخلاقي يعلو القانون الأخلاقي، أي أعلى من ذاهم الأخلاقية العادية، والأفراد ذوو الأخلاق المنحطة يعيشون في مستوى يقل عن المستوى العادي للقانون الأخلاقي".

ويقول أيضاً: "لعل الاقتصاد الدائم هو المثل الأعلى للفضائل" وكذلك قوله: "لا تفسد الآخرين بفراط حبك، ولا تقض عليهم بفراط كراهيتك، وخير الأمور هو الوسط بين الطرفين"^(٥).

ثالثاً: الفضائل الأخلاقية:

تقوم تعاليم كونفوشيوس الأخلاقية على فكرة غاية في الأهمية، وهي فكرة الـ "التاو" (Tao)^(٦) التي تعني "الطريق أو السبيل" أو المنهج المؤدي إلى غاية سامية. وتقوم الأخلاق عنده على

"التاو" لأنها إن لم ترتكز عليه مضت في عكس الطبيعة الإنسانية. إن الأخلاق إذا اعتصمت "بالتاو" أصلحت ذاتها بذاتها، وتقدمت الفضيلة، وغمرت السعادة كافة الجنس البشري. ومن هنا فإن التاو عند كونفوشيوس لا تحمل معنى صوفيا، أو تتضمن سلوكا إنعزاليا، وإن كان لا يغفل تماما المفهوم التصوفي لكلمة التاو، لأن كونفوشيوس قال: لو أن إنسانا سمع في الصباح كلمة تاو أو الطريق فلربما مات مساء نفس اليوم غير آسف " وليس مراد هذا بطبيعة الحال إلي أن روحه ستصعد بعد ذلك الي السماء، إذ رفض كونفوشيوس أن يناقش قضية الحياة بعد الموت. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على اهتمام كونفوشيوس بالكيف دون الكم. وأن "مقياس حياة الإنسان ليس كم طول عمره؟"، ولكن "كيف كان نصيبها من العطاء والصلاح"؟ وأن الإنسان إذا سمع كلمة الـ (تاو=الطريق) وفهمها وعمل بها، تمكن من بلوغ أرقى درجات الرقي الأخلاقي، وتحولت حياته إلى حياة سعيدة.

ومن ناحية أخرى، يعني الطريق عند كونفوشيوس في بعض الأحيان الاستقامة والحكمة. وقد نصح طلابه بأن يكون ولاؤهم للطريق، وحرص على مطالبتهم بأن يلتزموا به دون انحراف. وأن الـ "تاو" هو الطريق الرئيسي التي يجب أن يسلكها الأفراد لتحقيق الاستنارة الأخلاقية والسعادة للبشرية بأسرها في هذه الدنيا^(٧).

من هذا المنطلق يمكن القول أن مبادئ أو تعاليم كونفوشيوس الأخلاقية تتمحور حول أربع فضائل رئيسية تتشعب عنها كل القيم الأخلاقية التي ينبغي أن يتحلى بها الفرد حتى يصل إلى الكمال الإنساني، ويمكن للباحثة أن تتعرض لهذه الفضائل بالدراسة والتحليل على النحو التالي:

أ- فضيلة الإنسانية "جين" :-

تعد فضيلة الـ "جين" ^(٨) من أهم الفضائل عند كونفوشيوس والتي لا يمكن للإنسان الفاضل الاستغناء عنها مهما كانت الظروف المحيطة به. وقد بلغت أهمية هذه الفضيلة لدى كونفوشيوس لدرجة أنه يقدمها على سائر الفضائل الأخرى، بل أصبحت تتضمن كل القيم الأخلاقية الأخرى.

ومفهوم الجين اختلف عدد من الباحثين حول ترجمته، مما أدى إلى ظهور عدد من الترجمات له، فهو يترجم على أنه الحب، والصلاح، والخيرية، والإنسانية، والصدق والإخلاص البشري، وبساطة السلوك والفضيلة الكاملة.

ونستطيع أن نستخلص من بين كل هذه الترجمات أنه ضد كل الترععات الأنانية والمزيفة. إن كونفوشيوس نفسه لم يتجه إلى تعريفه من خلال النصوص ولم يحاول تحديد المعنى الذي وظفه داخل عمله ككل، ولكن نستطيع أن نستخلص من خلال مجموعة الحوارات التي تدور حول هذه الفضيلة المعنى الأصلي لها والذي قصده كونفوشيوس أيضا كانت الترجمة^(٩).

فقد تحدث كونفوشيوس مع أتباعه عن فضيلة الـ "جين" مركزاً على أنها صفة أخلاقية أساسية في منهجه وفكره الأخلاقي، وذلك حينما سأله أحد أتباعه عما هي "الجين" فرد عليه كونفوشيوس قائلاً "إنها حب البشر".

ويشرح كونفوشيوس هذه العبارة موضحاً المقصود بهذه الصفة الأخلاقية فيقول "يرغب كل إنسان في الثروة والشرف، ولكنها إذا تم تحقيقها عن طريق مخالف لمبادئ الأخلاق فإنه لا ينبغي الإبقاء عليها، ويكره كل إنسان الفقر وتواضع المرتبة، ولكن إذا لم يكن بالإمكان تجنبهما إلا بمخالفة المبادئ الأخلاقية، فإنه لا ينبغي تجنبهما، وإذا ما نأى شخص رفيع المكانة عن الإنسانية "الجين" فكيف يمكن أن يحقق تلك المكانة، ذلك لأن الإنسان رفيع المكانة لا يمكنه قط التخلي عن الإنسانية "الجين"^(١٠).

ويرى كونفوشيوس في منهجه أن الطريق السليم للفعل الإنساني ليس طريق تحقيق ما يحبه المرء وتجنب ما يكرهه، وإنما هو طريق العمل وفق مبدأ أعمق هو مبدأ "الجين". ولها منزلة كبيرة في فكر كونفوشيوس لدرجة أنه قال: "بأن الحياة ليست لها قيمة بدون "الجين". ويقول أيضا "إن المثقف الحازم ورجل الإنسانية "الجين" لا يسعى قط للحياة على حساب الإضرار بالإنسانية، وهو يؤثر التضحية بحياته لكي يحقق "الجين".

ويعتقد كونفوشيوس بأن التخلي عن "الجين" هو تخلي عن الحياة الإنسانية بصورة كاملة، وتبلغ "الجين" أهمية عظمى في فكر كونفوشيوس لدرجة أنه يجعل "الجين" أساس كل قيمة^(١١).

وقد قيل أن كلمة "جين" كانت في الأصل تدل على عضو من أعضاء العشيرة رفيعي المستوى. ولما كان كونفوشيوس يدعو إلى رفع المستوى الأخلاقي لكل الطبقات جعل هذه الكلمة تعني: أن تكون خيراً إلى أقصى حد، وبأوسع معنى ممكن لهذه الكلمة.

ومن ثم كانت صفات مثل: انعدام الأنانية، واحترام الآخرين، والولاء للأسرة، والإخلاص للأمر، كلها صفات الرجل "الجين".

ومن صفات الرجل المهذب "الجين" ألا يتذمر ولا يشكو وقت المحن، وهذه كلها صفات للرجل "الجين" أما "الجين" نفسه عند كونفوشيوس فهو نموذج متعال لم يبلغه سوى حكماء الماضي^(١٢).

ومن الملاحظ أن فضيلة "الجين" عند كونفوشيوس تتصف بكل الأوصاف الإنسانية الأخلاقية، مثل الحكمة، والعدالة، والتقوى، والشجاعة، والشهامة، والنقاء، والرحمة والعطف، والكرامة والصدق.

وأوجب كونفوشيوس على أتباعه ضرورة التحلي بهذه الفضائل الأخلاقية وضرورة التعبير عنها بالممارسة اليومية من أجل أن يسود المجتمع السلام، ويعم الخير والسعادة الكون بأسره. وبذلك تعني الجين حب الإنسان لأخيه الإنسان ويتسلل هذا الحب إلى أن يصل إلى جميع البشر^(١٣).

إن كونفوشيوس قد أراد من نسقه الأخلاقي ومن فضيلة الجين على وجه الخصوص أن يحقق ما يسمى "التماسك الاجتماعي" ليس فقط داخل الأسرة ولكن في داخل المجتمع كله، ولعل رغبة كونفوشيوس هذه كانت رد فعل لتفكك كل المؤسسات الاجتماعية داخل الصين في ذلك الوقت، مما أدى به إلى رفض مبدأ القوة لإصلاح الأمور سواء داخل الأسرة أو المجتمع لأنها غير ملائمة وعاجزة عن أن تحدث تنظيماً للعلاقات الأخلاقية بين البشر.

ب- فضيلة آداب السلوك "لي":

استمد كونفوشيوس هذه القاعدة من ماضي الصين العريق الذي استخدم فيه الأباطرة قواعد اللياقة أو السلوك "لي"^(١٤)، وأشار إلى أن التدني الأخلاقي والاجتماعي والسياسي الذي أصيب به عصره راجع إلى أن قواعد "لي" و"جين" لم تستخدم كما ينبغي. وأن قاعدة "لي" تغرس في النفوس الأخلاق الحميدة، وروح المجاملة كمبادئ راسخة يعمل بها العامة كما يعمل بها الخاصة^(١٥).

ويرى كونفوشيوس أن الرجل النبيل الذي اجتمعت فيه الفضائل الأخلاقية لو سلك الطريق المثالي داخل المجتمع لنتج عنه سعادة وخير الشعب، وهذا يستلزم أن تسير الأمة كلها على طريق الاستقامة الذي سلكه ملوك الماضي. وقد نالت هذه الفضيلة أهمية كبرى، بل أصبح من الضروري إعلائها فوق كل شيء^(١٦).

ويقول كونفوشيوس عن هذه الفضيلة "ينظر الرجل الأسمى إلى الاستقامة باعتبارها جوهر كل شيء، وهو يلتزم بها بحسب مبدأ آداب المجتمع (لي) ويزورها في تواضع وبمضيها إلى نهايتها في إخلاص، حقا إنه الرجل الأسمى"^(١٧).

استخدم كونفوشيوس كلمة "لي" للتعبير عن مجموعة القيم والعادات الأخلاقية والأعراف الاجتماعية المتشابهة التي تحفظ للمجتمع تماسكه وتوازنه وتظهر شخصيته الحضارية، وتوفر للفرد الطمأنينة والسعادة. إن كلمة "لي" تعني حرفيا قواعد السلوك وآداب اللياقة الاجتماعية المثالية، والطقوس والشعائر التي تخلو من التزمّت والجمود، وتراعي الظروف والمناسبات الاجتماعية، وتتضمن التوقير والاحترام لمن تجرى لهم.

هذه العادات والأعراف والطقوس والشعائر، تتمثل في أنواع معينة من الطعام ينبغي أن يتناولها الناس في المناسبات المختلفة والمراحل المتباينة من الحياة، كما يعبر عنها أنواع الملابس التي ينبغي أن يرتديها الناس في الأيام المقدسة، وعدد الانحناءات التي ينبغي أن يؤديها عندما يجيئون بعضهم بعضا، والطريقة التي يجب أن يسيروا في الشوارع، "فالرجال على الجانب الأيمن، والنساء على الجانب الأيسر"^(١٨).

وتظهر أهمية هذه الفضيلة، ليس فقط من خلال سلوك الأفراد، ولكن أيضا في السياسة وطريقة الحاكم لإدارة شئون البلاد، فعلى الحاكم أن يرفع المستقيم في أخلاقه على المخادع، وعندئذ لن يجزؤ أحد على أن يظل بعيدا عن الطريق المستقيم. فسلوك الرجل النبيل لا بد أن يكون على وفاق مع الاستقامة والتي لا يمكن أن تنفصل عن قاعدة "لي"^(١٩).

هذا في الوقت الذي اعتبر كونفوشيوس قاعدة "لي" دليلا على مدينية الإنسان وتحضره، وقد كان يطبق القاعدة على نفسه قبل أن يأمر بها، فما كان ليأكل مثلا إذا لم تقدم الوجبة وترتب المقاعد بالطريقة السليمة واللائقة والملائمة^(٢٠). وبالغ كونفوشيوس في

حديثه عن تلك القاعدة الحاكمة للسلوك بقوله "إن الإنسان المهذب يتجنب وضع قدمه حتى على ظل جاره"^(٢١).

لقد أصبحت "لي" عند كونفوشيوس، شريعة كاملة للسلوك المهذب، فهي تتحكم في ارتداء الثياب، وفي المراعاة الدقيقة للآداب الاجتماعية والأخلاق الحسنة، بصفة عامة، بل في التصرفات والإيماءات والإشارات بحيث يضاف المظهر الخارجي الملائم إلى السلوك الأخلاقي. ومن المعلوم أن الصينيين قد قدسوا آداب اللياقة وقواعد السلوك قبل كونفوشيوس بزمن بعيد، لأن الشعب الصيني كان ينقسم منذ قدم الزمان إلى طبقتين: طبقة النبلاء، وطبقة العامة.

وفي الوقت الذي كان العامة في يخضعون للقانون المدني، كان النبلاء غير مقيدين بهذا القانون، بل يخضعون لقانون آداب اللياقة المتميز بالتقاليد العالية الموروثة عن المنازل النبيلة، وعن الأساتذة المحجلين العظام. ومن هنا كان احترام كونفوشيوس لهذه الآداب والطقوس والشعائر التي كانت تعد بمثابة قانون مدني مستمد من القانون الأخلاقي العام الخالد غير المكتوب. وتحت سطح التأكيدات الكونفوشية لدقائق الحياة اليومية، يكمن الاعتقاد القديم القائل بأن للطقوس نفسها قوتها السحرية^(٢٢).

ولكن كونفوشيوس أسبغ على "لي" دلالة معنوية، بفضلها يصبح الإنسان إنسانا ممتلئا بالقيم، ومتميزا عن الحيوانات الضارية، إذ تجعل من الفلاح الصيني في كوخه شخصية بارزة له كرامته التي لا تقل بأية حال عن شخصية الملك في قصره. وهذا النظام الكونفوشي لقواعد السلوك وآداب اللياقة المشار بإتباعها، حتى يعود الناس أنفسهم على حب النظام والطاعة، جعل من الشعب الصيني واحدا من أكثر الشعوب المدققة في الرسميات في التاريخ، كما أكد لكل فرد أنه يمتلك في ذاته قيمة لا متناهية، يمتلكها أيضا الآخرون، وأعطى هذا النظام الشعب شعورا باحترام الذات، واحترام الآخرين.

ج- فضيلة الاستقامة "لي" (٢٣):

الاستقامة تشكل قوة أخلاقية هامة، لأنها تقوم بدور المعيار في الحكم على الأشياء وعلى مدى اقتراها أو بعدها عن الحق. وهذه الفضيلة تفرض على الفرد ألا يقبل على أداء أي فعل، أو الموافقة على أي عمل دون أن يفكر في كل الجوانب المحيطة بهذا العمل، ويلتزم جانب الحق والاستقامة فيه.

ويرى كونفوشيوس أن الرجل النبيل الذي اجتمعت فيه الفضائل الأخلاقية لو سلك الطريق المثالي داخل المجتمع لنتج عنه سعادة وخير الشعب، وهذا يستلزم أن تسير الأمة كلها على طريق الاستقامة الذي سلكه ملوك الماضي. وقد نالت هذه الفضيلة أهمية كبرى، بل أصبح من الضروري إعلانها فوق كل شيء^(٢٤).

ويقول كونفوشيوس عن هذه الفضيلة "ينظر الرجل الأسمى إلى الاستقامة باعتبارها جوهر كل شيء، وهو يلتزم بما يحسب مبدأ آداب المجتمع وبرزها في تواضع ومضي بها إلى نهايتها في إخلاص، حقاً إنه الرجل الأسمى^(٢٥)."

وتظهر أهمية هذه الفضيلة، ليس فقط من خلال سلوك الأفراد، ولكن أيضاً في السياسة وطريقة الحاكم لإدارة شؤون البلاد، فعلى الحاكم أن يرفع المستقيم على المحادع، وعندئذ لن يجرؤوا أحد على أن يظل بعيداً عن الطريق المستقيم. فسلوك الرجل النبيل لا بد أن يكون على وفاق مع الاستقامة.

والاستقامة ضد الخداع وضد أن يتظاهر الفرد بما ليس فيه فالاستقامة هي أن يؤدي الإنسان الأشياء الملائمة لعامة الناس، وأن يكن متسقاً في سلوكه مع ما يكنه من مشاعر تجاه الآخرين، أي أن يتفق ظاهره مع باطنه حتى يستطيع الإعلاء من شأن هذه الفضيلة، يقول كونفوشيوس: (ما هو حقيقي في الداخل سوف يظهر في الخارج فالرجل النبيل لا بد أن يراقب ذاته). ولكن ما السبب الذي جعل كونفوشيوس يشدد على فضيلة الاستقامة إلى هذا الحد؟ مما لا شك فيه أن ذلك ردة فعل لما كان يعانيه عصره من تفكك وفساد، لذلك نجد الاستقامة وضعت لتعمل على أنها قيد للسلوك الإنساني وللتأثير على الأفراد بالألا يلتمسوا إلا ما هو حق.

ومن هنا نجد أن الاستقامة تتعارض مع الشهوات والرغبات. يقول كونفوشيوس: "أن تكون مليئاً بالرغبات فكيف يمكنك أن تكون مستقيماً" فالرغبة تعني أشياء قد يعجز الإنسان عن تحقيقها، وليس معنى هذا أن يكبت الإنسان رغباته، ولكن لا بد من الحد منها عن طريق الاستناد إلى ما يكمن في القلب من قيم تعد أساساً لسلوكه تجاه الآخرين وهو منهج الاستقامة^(٢٦).

د- فضيلة الطاعة النبوية "هسيان":-

تعد فضيلة "هسيان"^(٢٧) من التعاليم والمبادئ الأخلاقية التي دعا لها كونفوشيوس، وهي تعني بطاعة الأبناء للآباء كأحد أهم تعاليم كونفوشيوس، وأساس الفضيلة في نظره، لأن الفرد لن يمكنه احترام قانون المجتمع، وأداء واجباته حيال الحاكم والمجتمع، إلا بعد إدراكه كيفية احترام والديه وخدمتهما طائعا مبحلا. وقد نبه كونفوشيوس مردييه وأتباعه لمزاولة طاعة الوالدين داخل الأسرة، بما يؤكد أهميتها بوصفها الخلية الأولى، والصورة المصغرة للمجتمع، كما دعا إلى تنظيم شئون الأسرة باتباع قواعد الفضيلة، وعلى رأسها فضيلة الطاعة النبوية أو ما يطلق عليها "هسيان".

يقول كونفوشيوس: "عامل أفراد أسرتك معاملة فاضلة، تستطيع بعد ذلك أن تعلم وتقود أمة بأكملها" كما قال: "من بر والديه، وأحب أخوته، تمكن من السياسة"^(٢٨). وتمثل طاعة الأبناء لدى كونفوشيوس في حب الوالدين وخدمتهما والعناية بهما فيحياتهما، وبتهيئة القبر المناسب لهما، ودفنهما دفنا لائقا بهما ثم تقديم القرابين لهما بعد مماتهما. ومما قاله كونفوشيوس: "إذا كان الوالدان في قيد الحياة خدمتهما بالأدب، وإذا توفيا دفنهما بالأدب، وقدم القرابين إليهما بالأدب".

ويقول: "يجب على الولد الميرة بوالديه إذا كان داخل المنزل، والاحترام للمتقدمين في السن إذا كان خارجه، وأن يكون منتبها صادقا مشفقا على عامة الناس" ويقول: "من كان والداه على قيد الحياة، فلا يسافر إلى الآفاق القاصية، فإن سافر مضطرا، فليكن لسفره جهة معينة"^(٢٩).

كما أكد على تقديم النصح للوالدين بمتهى الأدب والاحترام حيث قال: "من خدم والديه، فليصح لهما بالبشاشة والرفق، فإن رأى منهما عزيمة على الأعراض عن نصحه، فليزدد احتراما لهما وهو غير متنازل عن تقديم النصح لهما، وغير متدمر منهما ولو نالته المتاعب في سبيل نصحه لهما"^(٣٠). وقال أيضا: "إن ضربا الأبوين الابن فلا يشتكي"^(٣١).

ويهدف الزواج، عند الكونفوشيوسية، إلى إيجاد ذات جديدة تعمل على تخليد الذات القديمة إلى مدى "عشرة آلاف جيل"، وتتصف الذرية بالتقوى والورع إن استطاعت تحقيق هذا الهدف. ويمكن تخليد ذكرى الأسلاف عن طريق تقدير الابن لبدنه الذي ورثه عن والديه، ورعايته له وحمانيته من أي أذى، كما يتطلب هذا التخليد أن يعمل الابن جاهداً على إنجاب أحفاد يحفظون شجرة العائلة، إلى

جانب الاستجابة لرغبات الآباء أثناء حياتهم، وعلى الأبن أن يمتنع عن ارتكاب الأفعال المشينة، حرصاً منه على عدم تلوّث سمعة عائلته^(٣٣).

والصينيون يحترمون أسلافهم منذ القدم وإلى اليوم، ويعتبر عندهم أمراً بديهيّاً. كما أن كبر السن يمنح صاحبه عزة النفس والسلطة، فالرجل المسن في الصين يسكت الشاب قائلاً "أسكت لقد اجتزت جسوراً أكثر مما عبرت أنت من الشوارع"^(٣٣).

ومن الملاحظ أن هذه الفضيلة لا تقتصر كما قلنا على المحيط العائلي، بل تتعدى العائلة وتؤثر في الأفعال خارج المحيط العائلي، لكن نقطة البداية هي العائلة، فعندما يتعلم الأطفال احترام أبويهم، فإن بمقدورهم أن يحبوا أخوتهم، وبالتالي فإن بإمكانهم أن يحبوا حكامهم ورؤسائهم، وبالتالي يحبوا الإنسانية بأسرها وعندما يوجه حب الإنسانية كل الأفعال فإنهم يتصرفون وفقاً لإنسانيتهم^(٣٤).

وقد بين كونفوشيوس أن هذه الفضيلة لها جوانب متعددة ومن ذلك قوله: "أن قيام الأبن بإطعام والديه لا يعني بره بهما، ذلك لأن الخيول والكلاب تجد لها طعاماً فعلى الأبناء - في المقام الأول - فريضة توقير الأبوين. فإن إرتأى الأبن رأياً فعليه عرضه على الأبوين في لطف وكياسة"^(٣٥).

وقد كانت الطاعة من المصطلحات التي يزخر بها التراث الصيني حيث كانت تتجلى، فيما مضى، في شكل قرابين مقدسة تقدم داخل المعابد المختلفة للآباء والأجداد، وقبل ذلك كانت عبادة الإله لفترة طويلة هي العبادة الوحيدة داخل إمبراطورية الصين القديمة، وبمرور الوقت ساد الشعور بأن العالم ملئ بالأرواح المشرفة والمسيطرة على بعض أجزاء هذا العالم. لذلك نشأ ما يسمى بعبادة الأرواح، بجانب عبادة الإله، وكانت عبادتها تتم بأن يقدم لها الولاء والطاعة كوزراء للإله، ولكن كل هذه العبادات والطقوس كانت تمارس فقط من جانب النبلاء في الوقت الذي حرم فيه الشعب من تأليه وعبادة تلك الآلهة. وبمرور الوقت اضطر الأفراد إلى أن يجعلوا لأنفسهم نوعاً من الأرواح ليعبدوها وتعوضهم عن هذا الفراغ الديني، وهنا بدأ ما يسمى بـ"تأليه الأجداد" فإذا كانت الطقوس التي تقدم للإله خاصة بالملك وحده باعتباره ممثلاً للشعب، فإن تأليه الأجداد وتقديم القرابين لأرواحهم أصبح فعلاً يمارس من قبل كل الشعب الصيني. الأمر الذي نتج عنه شكل من أشكال العبادة للموتى من الأجداد^(٣٦).

كونفوشيوس جعل لفضيلة "هسياو" أو الطاعة البنوية مدلولاً مختلفاً في تعاليمه، فقد أصبحت واجباً اجتماعياً لضمان صحة العلاقات الأسرية. فإذا قدم الأبن الطاعة لوالديه والتزم بمبادئهم الصحيحة، وأقام فترة الحداد المطلوبة (الثلاث سنوات) ينقطع خلالها عن كل المتع والملذات، واستمسك بطريقتهم وعمل جاهداً على إحياء ذكراهم، استحق أن يدعى ابناً مثالياً. فالطاعة تعد شيئاً أساسياً في تدريب الصغار على السلوك المنضبط حينما ينطلقون خارج حدود الأسرة، ومن هنا فإن المجتمع ما هو إلا مجال أكثر اتساعاً وانتشاراً لتلك الفضائل التي تعد جوهر الصلاح والإنسانية، وهذا ما أدى إلى أن يتضمن الولاء السياسي في المقام الأول الولاء العائلي^(٣٧).

الخلاصة

الواضح مما سبق أن مبادئ أو تعاليم كونفوشيوس الأخلاقية تتمحور حول أربع فضائل رئيسية تتشعب عنها كل القيم الأخلاقية التي ينبغي أن يتحلى بها الفرد حتى يصل إلى الكمال الإنساني، وأن هذه الفضائل تعتبر الركيزة والقاعدة أو الأساس في تفسير وتعليل وحدوث كل الحقائق أيا كانت هذه الحقائق، بل يمكن القول بأن كل أبناء الصين القديمة، كان يجمعها قاسم مشترك لعدد من الفضائل التي نادي بها كونفوشيوس.

فالصين دولة تتمتع بأساس أخلاقي عميق وتعد الفلسفة الخلقية أهم وأنجح جزء في الثقافة الصينية. وقد تشكل في الصين تدريجيا نظام مقاييس الأخلاق الصارم والمحدد الذي توارثته الأجيال المتعاقبة في التطور التاريخي البطيء للمجتمع الصيني التقليدي. وما كان لحكماء الصين أن يبلغوا مبلغهم المناظر له من الفلسفة العقلية، فبدايات التفكير النظر للصينيين أنتجت بدايات موازية لها من الأخلاق النظرية، فلا أخلاق عملية بغير تفكير نظري سابق عليها أولا. ولقد تجاوز كونفوشيوس بتعاليمه حدود الأخلاق النظرية إلى آفاق الأخلاق العملية التي يحاول غالبية الشعب الصيني التمسك بها وتطبيقها.

الهوامش

(١) ولد كونفوشيوس سنة ٥٥١ قبل الميلاد في مقاطعة "لو" قرب مدينة "تشو-فو" بولاية "شان تونج"، وكونفوشيوس هو الاسم المعرب لـ "كنج-فو-تشي" أو "كنج-فو-تزو" ويعني "كنج المعلم أو الأستاذ أو الحكيم" وقيل: معنى "كنج" اسم القبيلة التي ينتمي إليها و"فو تشي" أو "فو تزو" معناها الرئيس أو الفيلسوف فهو بذلك رئيس كنج أو فيلسوفها ويشير البعض أنه أطلق عليه عند ولادته "كن" أي التل الصغير، وربما أطلق عليه بسبب وجود تل صغير إلى جوار البقعة التي ولد فيها، أو يكون بسبب شكل رأسه الذي قيل أنها تشبه التل الصغير. وتشير المصادر الصينية إلى أن الاسم الذي أطلق عليه عند ولادته "تشيمو" وظل يطلق عليه إلى أن كبر وجلس يعلم الناس، ويرد على أسئلتهم واستفساراتهم، وكان الكثير من الناس الذين يأتون إليه يسمونه "كنج-فو-تشي" أي كنج الفيلسوف. ومن هنا بدأ تحريف الاسم ليطلق عليه الناس بعد ذلك الاسم الشهير كونفوشيوس. يمكن الرجوع إلى أحمد الشنتاوي: الحكماء الثلاثة، دار المعارف للطباعة والنشر، مصر (د.ت)، ص ١١٦. وكذلك: - محمد العربي: موسوعة الأديان السماوية والوضعية (٣)، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٥، ص ٢٢٦.

(٢) حسن شحاته سلفان: كونفوشيوس النبي الصيني، مكتبة فحضة مصر، ١٩٥٦، ص ٥٠.

(٣) كونفوشيوس: كتاب الحوار - ترجمة / محمد مكين الصيني، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٥٤هـ، ص ٥٩.

(٤) صلاح بسيوني رسلان: كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني، دار قباء، مصر، ١٩٩٨، ص ١١٩.

(٥) صلاح بسيوني رسلان: كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني، مرجع سابق، ص ١٣٢ - ١٣٤.

(٦) فكرة التاؤ تتضمن: دستور سلوك الفرد وقانونه الأخلاقي من ناحية، ومن ناحية أخرى منهاج الحكومة الذي يضمن لكل فرد، في حالة تطبيقه، أعظم قدر من الرفاهية والسعادة. للمزيد انظر: ه.ج. كرييل: الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماو تسي تونج، ترجمة/ عبد الحلیم سليم وعلي أدهم، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦، ص ٥١.

(٧) ه.ج. كرييل: الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماو تسي تونج، ترجمة/ عبد الحلیم سليم وعلي أدهم، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦، ص ٥٢.

- (٨) الجين: لها عدد من الترجمات. ومنها على سبيل المثال: أنها تعنى الفضيلة الإنسانية، والإحسان، والرجولة، والحب والخير الإنساني، وطيبة القلب الإنسانية، كذلك ترجمت على أنها: أمر متعلق بالشعور والتفكير الإنساني. كما تعنى أيضا الود أو العطف أو الشفقة، وهي صفة أخلاقية أساسية في الفكر الصيني وفي الفكر الكونفوشيوسي خاصة. انظر: جون كولر: الفكر الشرقي القديم، ترجمة/ كامل يوسف حسين، مراجعة/ إمام عبد الفتاح، سلسلة عالم المعرفة، العدد رقم ١٩٩، الكويت ١٩٩٥م، ص ٣٥٠-٣٧٣.
- (٩) هالة أبو الفتوح أحمد: فلسفة الأخلاق والسياسة (المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس)، دار قباء، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٧٥.
- (١٠) جون كولر: الفكر الشرقي القديم، ترجمة/ كامل يوسف حسين، مراجعة/ إمام عبد الفتاح، سلسلة عالم المعرفة، العدد رقم ١٩٩، الكويت ١٩٩٥م، ص ٣٥١.
- (١١) جون كولر: الفكر الشرقي القديم، مرجع سابق، ص ٣٥٢.
- (١٢) جيفري بارندر: المعتقدات الدينية لدي الشعوب، ترجمة/ إمام عبد الفتاح، مراجعة/ عبد الغفار مكاوي، عالم المعرفة، العدد ١٧٣، الكويت ١٩٩٣، ص ٢٨٦-٢٨٧.

(13) Encyclopedia Of The World And Its People, Vol.2,
National Library Of Australia, Sedney, 1980, P.355.

(١٤) قاعدة "لي": تعني العديد من الأشياء. فهي تعني الدين والاستقامة، وكذلك المبدأ العام للنظام الاجتماعي، وتعني أيضا الطقوس والاحتفالات، وأيضا نظاما للعلاقات الاجتماعية المحددة بوضوح بين كل طرف تجاه الطرف الآخر. وهذه القاعدة أو الفضيلة "لي" لها ثلاثة مفاهيم من الوجهة التاريخية:-

الأول: أنها تعني بطقوس الممارسات الدينية، والاعتناء بطقوس أخرى مثل طقوس الزواج والاحتفالات العسكرية، وهي بذلك تشكل مجموعة من القواعد والأعراف ذات طابع ديني واجتماعي وسياسي.

الثاني: أنها قانون عرفي تحل محل القانون المكتوب مع كونها إيجابية وليست سلبية، بحيث لا تجلب معها العقاب.

الثالث: هو المفهوم الأكثر رحابة وسعة وبذلك فهي تعني بكل ما هو مناسب يتوافق مع الأعراف الإنسانية. أو أنها ذلك الحشد الهائل من القيم والأعراف الاجتماعية التي تعد بمثابة قواعد حاكمة يحقق التماسك المجتمعي ويحقق مظهره الحضاري. للمزيد يمكن الرجوع إلى:

- جون كولر: مرجع سابق، ص ٣٥٥. وكذلك: يمىي طريف الخولي: المنتخبات لكونفوشيوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤، ص ٢٣.
- (١٥) عبد الرحيم شعبان: الفكر الأخلاقي في الصين القديمة. وأثره في الفكر الحديث، جامعة الزقازيق، ٢٠٠١، ص ١٤٣.
- (١٦) هالة أبو الفتوح أحمد: فلسفة الأخلاق والسياسة (المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس)، مرجع سابق، ص ٨٦.
- (١٧) جون كولر: الفكر الشرقي القديم، مرجع سابق، ص ٣٥٦.
- (١٨) هنري توماس: أعلام الفلاسفة، ترجمة متري أمين، مراجعة / زكي نجيب محمود، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٤، ص ٥٩.
- (19) Encyclopedia Of Religion Macnillan Publishing Company, Vol. 4, New York, 1993.P.298.
- (٢٠) يمىي طريف الخولي: المنتخبات لكونفوشيوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤، ص ٢٤.
- (٢١) هـ. فان. براج: حكمة الصين، ترجمة/ مرفق المشنوق، الأهالي للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا ١٩٩٨، ص ١٠٩.
- (٢٢) جيفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، مرجع سابق، ص ٢٨٧.
- (٢٣) الاستقامة في التعاليم الكونفوشيوسية: هي الاستعداد للقيام بالسلوك الأخلاقي الصحيح والقدرة على إدراك ما هو صحيح في نفس الوقت، وهي قدرة تعمل كنوع من الحدس الأخلاقي، وهذه القدرة تجعل الشخص صاحب شخصية أخلاقية قوية، وهو يفكر إذا أراد أن يفعل شيئاً هل هو صواباً على الصعيد الأخلاقي أم لا. للمزيد يمكن الرجوع إلى: جون كولر: الفكر الشرقي القديم، مرجع سابق، ص ٣٥٧.
- (٢٤) هالة أبو الفتوح أحمد: فلسفة الأخلاق والسياسة (المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس)، مرجع سابق، ص ٨٦.
- (٢٥) جون كولر: الفكر الشرقي القديم، مرجع سابق، ص ٣٥٦.
- (٢٦) هالة أبو الفتوح أحمد: فلسفة الأخلاق والسياسة (المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس)، مرجع سابق، ص ٨٧.

- (٢٧) ويطلق عليها فضيلة الولاء النبوي ويقصد بها ولاء الأبناء للآباء وتوقير العائلة واحترامها، فأولا وقبل كل شيء يتم توقير الأبوين، ويظنون أن الحياة نفسها متولدة عنهما. وبلغ اهتمامهم بهذه الفضيلة أن يهتموا بالجسم من أن يلحق به ضرر لأنه من الأبوين ومن هنا فإن حماية الجسم هي تكريم للأبوين. وينبغي إظهار التوقير للأبوين من خلال حسن السلوك في الحياة، وجعل إسهامها معروفاً ومبجلاً، وعلى الأقل ألا يجلب الولد لهما الخزي، فاحترام الآباء يجلب الثراء العاطفي والروحي وتحقيق الغرض بعد الممات. للمزيد انظر: جون كولر: الفكر الشرقي القديم، مرجع سابق، ص ٣٥٥.
- (٢٨) كونفوشيوس: كتاب الحوار مرجع سابق، ص ٢٦.
- (٢٩) كونفوشيوس: كتاب الحوار مرجع سابق، ص ٢٢.
- (٣٠) كونفوشيوس: كتاب الحوار، مرجع سابق، ص ٤١.
- (٣١) فؤاد محمد شبل: حكمة الصين، الجزء الأول، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٩٠.
- (٣٢) فؤاد محمد شبل: حكمة الصين، الجزء الأول، مرجع السابق: ص ١٤٧.
- (٣٣) هـ. فان. براج: حكمة الصين، ترجمة/ موفق المشنوق، الأهالي للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا ١٩٩٨، ص ١٠٣.
- (٣٤) جون كولر: الفكر الشرقي القديم، مرجع سابق، ص ٣٥٦.
- (٣٥) عبد الرحيم شعبان: الفكر الأخلاقي في الصين القديمة وأثره في الفكر الحديث، مرجع سابق، ص ١٤٧.
- (٣٦) محمد حسن خليفة: تاريخ الأديان، القاهرة، ١٩٩٦، ص ١١٥.
- (٣٧) هالة أبو الفتوح أحمد: فلسفة الأخلاق والسياسة (المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس)، مرجع سابق، ص ٩٣.

مراجع البحث

أولاً: المراجع العربية:-

- (١) حسن شحاته سعفان: كونفوشيوس النبي الصيني، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٦م.
- (٢) جون كولر: الفكر الشرقي القديم، ترجمة/ كامل يوسف حسين، مراجعة/ إمام عبد الفتاح، سلسلة عالم المعرفة، العدد رقم ١٩٩، الكويت ١٩٩٥م.
- (٣) جيفري بارندر: المعتقدات الدينية لدي الشعوب، ترجمة/ إمام عبد الفتاح، مراجعة/ عبد الغفار مكاوي، عالم المعرفة، العدد ١٧٣، الكويت ١٩٩٣م.
- (٤) صلاح بسيوني رسلان: كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني، دار قباء، مصر، ١٩٩٨م.
- (٥) عبد الرحيم شعبان: الفكر الأخلاقي في الصين القديمة وأثره في الفكر الحديث، جامعة الزقازيق، ٢٠٠١م.
- (٦) فؤاد محمد شبل: حكمة الصين، الجزء الأول، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨.
- (٧) كونفوشيوس: كتاب الحوار - ترجمة / محمد مكين الصيني، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٥٤هـ.
- (٨) هـ. ج. كريل: الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماو تسي تونج، ترجمة/ عبد الحلیم سليم وعلي أدهم، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦م.
- (٩) محمد حسن خليفة: تاريخ الأديان، القاهرة، ١٩٩٦م.
- (١٠) هـ. ج. كريل: الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماو تسي تونج، ترجمة/ عبد الحلیم سليم وعلي أدهم، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م.
- (١١) هالة أبو الفتوح أحمد: فلسفة الأخلاق والسياسة (المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس)، دار قباء، القاهرة ٢٠٠٠م.
- (١٢) هـ. فان. براج: حكمة الصين، ترجمة/ موفق المشنوق، الأهالي للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا ١٩٩٨م.
- (١٣) هنري توماس: أعلام الفلاسفة، ترجمة متري أمين، مراجعة/ زكي نجيب محمود، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٤م.
- (١٤) عمي طريف الخولي: المنتخبات لكونفوشيوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤م.

ثانياً: المراجع الأجنبية:-

(15) Encyclopedia Of The World And Its People, Vol.2, National Library Of Australia, Sedney, 1980.

(16) Encyclopedia Of Religion Macnillan Publishing Company, Vol. 4, New York, 1993.